القيم الأخلاقية والتربوية
في فلسفة (مسكويه)

أ . د / فتحي عبد الحميد صديق حجازي
الأستاذ المساعد بقسم العقيدة والفلسفة
كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

المبحث الأول

(مسكويه) بين مادحيه وقادحيه

ويشتمل على عنصرين

الأول : التعريف (بمسكويه) وملامح عصره .

الثاني : (مسكويه) بين مادحيه وقادحيه .

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد :

سنعرض في هذه الدراسة للقيم الأخلاقية والتربوية في فلسفة (مسكويه) والذي يعد من أحد فلاسفة المسلمين الذين عنوا عناية بالغة بالقيم الأخلاقية والتربوية والفلسفة الإنسانية فجاءت مذاهبهم فيها غنية بالأصالة ، ومن بين هؤلاء الفلاسفة مسكويه فقد اشتهر ومن على شاكلته من فلاسفة المسلمين بأنهم (فلاسفة أخلاقيون) ، وقد اهتم بالتوفيق بين العديد من آراء الفلاسفة الإغريق ليكون منها نظاماً واحداً منسجماً من ناحية ، وبالتوفيق بين الدين والفلسفة – كما أكد ذلك أستاذنا الدكتور محمد يوسف موسى – من ناحية أخرى ، وله بجانب هذا نزعة اجتماعية ، وأخرى عملية ، وجهد غير يسير في علاج ما أراد علاجه من مسائل في علم الأخلاق .

ومسكويه المعلم الثالث في علم الأخلاق ، وخير نموذج يمثل الفلسفة الخلقية ، ويرجع ذلك إلى أنه قد عني عناية خاصة وفائقة بالبحث الخلقي وإن انصرف في بادئ الأمر لدراسة الطب والكيمياء والفلسفة ، وألف في التاريخ ، إلا أنه عني في سائر ما صنف وألف بدراسة الأخلاق .

وهذا ما دفعني لدراسة فلسفة هذا الفيلسوف فقد ارتبط اسمه بتاريخ الفكر الأخلاقي في الإسلام ارتباطاً وثيقاً بحيث لا يمكن التأريخ لهذا الفكر بأي حال من الأحوال دون أن يذكر مسكويه ، وأصبح علماً من علماء ورواد الفلسفة الأخلاقية في الإسلام إن لم يكن أبرزهم ، فقد تفرغ للبحث في الأخلاق وتعمق في مجالها لذا سأعني في هذه الدراسة ببيان المباحث الآتية :

المبحث الأول : التعريف بمسكويه وعصره .

المبحث الثاني : مذهبه ومنهجه في الفلسفة الأخلاقية والتربوية .

المبحث الثالث : أسس المنهج الفلسفي (الأخلاقي والتربوي) لدى مسكويه .

المبحث الرابع : منابع الفكر الفلسفي (الأخلاقي والتربوي) لدى مسكويه .

المبحث الخامس : القيم الأخلاقية في فلسفة مسكويه .

المبحث السادس : القيم التربوية في فلسفة مسكويه .

ولي مع كل مبحث من هذه المباحث وقفة .

وهاكم التفصيل بعد هذا الإجمال وبالله التوفيق .

التعريف بمسكويه :

هناك إجماع من المصادر (1) على اسمه وكنيته فيسمى بـ(أحمد بن محمد بن يعقوب) ، ويكنى بأبي على الخازن ، ويعرف : بأنه صاحب التجارب أو تجارب الأمم ، إلا أن هناك اختلافاً في لقبه هل هو مسكويه أو ابن مسكويه ، فأغلب المصادر القديمة هو مسكويه والبعض ابن مسكويه والأرجح أنه يلقب بمسكويه دون ابن مسكويه (2) لسببين :

أولهما : أن المصادر أغلبها يذكرها بمسكويه وبعضها يذكره بابن مسكويه .

وثانيهما : أن أغلب من قال بمسكويه فقط كانوا من العلماء الذين عاشوا في زمنه وكانوا من رفاقه وأصحابه ويجتمعون به وينادمونه ويراسلونه ، وخليق بنا أن نصدقهم لأنهم خلطاء الرجل وأدرى الناس باسمه ولقبه وكنيته .

ومسكويه من علماء القرن الرابع الهجري ، وعايش هذا القرن وبعضا من القرن الخامس الهجري ، وتوفي في الربع الأول من القرن الخامس الهجري ، وعاش حياته وعاصر الدولة البويهية حيث بدأت سنة ٣٢٠هـ وانتهت سنة ٤٤٧هـ ونشأ في كنفها بين الوزراء والأمراء ، ومازال يتنقل من خدمة وزير إلى خدمة ملك أو أمير في دولة بني بوية حتى اندمجت حياته بحياة الأسرة البويهية وكان لها أكبر الأثر في حياته المادية والعقلية وفي مركزه الأدبي ، وعايش أبرز العلماء وأنبغ الكتاب والأدباء وأرفع الفلاسفة والشعراء قدراً وصيتاً وكان رفيق الأمراء والملوك وظل معهم طوال حياته صديقاً وفياً وخازناً أميناً ، وكاتباً رفيع الجناب يمتعهم بكتابته ، ومفكراً يعطيهم من عقله وفكره وأكثر مما يعطونه من أيديهم ، وكان ينادمهم في مجالس أسمارهم ، ويمدهم بمشورته في عسرهم ويسرهم ، وينير لهم الطريق إذ أظلم ما حولهم ، ويصير رسولهم إلى الخلفاء والأمراء ، وهو الخازن الأمين لهم في حله ، والمخلص الأمين لهم في ترحاله .

---

(1) راجع (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) ص٢١٧، معجم الأدباء لياقوت جـ٥ ص٥ ، ونزهة الأرواح وروضة الأفراح في تاريخ الحكماء والفلاسفة للشهروزي جـ٢ ص٧٩ ، وعيون الأنباء جـ٦ ص٢٤٦ وغيرها كثير .

(2) الفهرست لابن النديم ص٨٢ ، ومن المؤرخين أبو حيان ، والثعالبي والخوارزمي ، وابن أبي صبيعة والقفطي رجحوا هذا الرأي .

وبالجملة فإن عصره وما دار فيه كان له الأثر كل الأثر في تفكيره الأخلاقي ، فكتبه في هذا الصدد ما هي إلا برنامج إصلاح للفرد في ذلك العصر ولإنقاذ المجتمع بأسره (١) .

وعن حياته وطفولته وما مر به من أطوار فإن حياته الأولى (الطفولة) تنبئ عن شخصيته كانت ترتع وراء الشهوات واللذات ، وحياة العبث واللهو ساعده على ذلك أقران السوء وأعوان الفساد ، إلى أن اجتاز هذه المرحلة العابثة الفاسدة ووفق في محاسبة نفسه واستطاع أن يفطمها عما اعتادته من اللذائذ الفانية ولم يفطن إلى ذلك إلا في نضجه وأخذ يكفر عما فرط منه بكتابته في الأخلاق ورسمه مناهجها وتحديد معالمها وقواعدها وأخذ يوضح سبل الفضائل التي ضل عنها من قبل .

وفي هذا يقول مسكويه في كتابه (تهذيب الأخلاق ....) وليعلم الناظر في هذا الكتاب أنني خاصة قد تدرجت إلى فطام نفسي بعد الكبر واستحكام العادة وجاهدتها جهاداً عظيماً ، ورضيت لك أيها الفاحص عن الفضائل والطالب للأدب الحقيقي بما رضيت لنفسي بل تجاوزت في النصيحة لك ، إلى أن أشرت عليك بما فاتني في ابتداء أمري لتدركه أنت ، ودللتك على طريق النجاة قبل أن تتيه في مفاوز الضلالة ، وقدمت لك السفينة قبل أن تغرق في بحور المهالك ، استسلموا للحق وتأدبوا بالأدب الحقيقي لا المزور وخذوا الحكمة البالغة وانتهجوا الصراط المستقيم (٢) .

ومن ثم لم تكن فلسفة الأخلاق لدى مسكويه موضوع بحث نظري مجرد فحسب بل كانت خبرة علمية وسلوكاً حياتياً .

مكانة مسكويه في علم الأخلاق :

لقد بالغ فيه المادحون وأثنوا عليه في المكانة الأخلاقية نظراً لنجاحه في حياته العلمية والعملية ومتانة أخلاقه التي هي قوة مرعبة يرعد لها الأدباء

---

(١) راجع (معجم الأدباء) جـ٥ ص٥ ، وروضات الجنات جـ١ ص٢٥٧ ، وظهر الإسلام ، د. أحمد أمين جـ١ ص٩٦ ، وفلسفة الأخلاق د. محمد يوسف موسى ص٧٤ – ٧٥ .

(٢) (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق) ص٥٠ .

المساكين الذين ابتلوا بالطمع في هدايا الملوك والوزراء وألفوا التودد والتزلف إلى أقطاب الجاه والمال .

وكان من المتحاملين عليه ابن سينا والتوحيدي ، ويرى كثير من الباحثين أن أبا حيان كان متحاملاً على مسكويه لأنه كان شديد الحقد على المشاهير والنابهين من أهل زمانه وخاصة من اتصلوا بالملوك والأمراء ويرون أنه ينبغي أن يؤخذ بحذر كلام أبي حيان لأنه لم يسلم واحد منهم من هجومه وإظهار مثالبه حيث عرف عنه سخف اللسان وقلة الرضا واتخاذ الثلب ديدنا (1) ، وقد رجح الدكتور زكي مبارك هذا التحامل .

ومن المادحون الثعالبي والشهروذي والخوانساري وكان من جملة ما مدحوه به أنه كان في الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر وكان من أعيان الزمان وتخصصه بسائر الأكابر ، ويقول القفطي : (كان من كبار فضلاء العجم ، ولأجلاء فارس له مشاركة حسنة في العلوم الأدبية .... وله مناظرات ومحاضرات وتصنيفات في العلوم) وغيره قال : الحكيم الماهر والأستاذ الكابر ، ومن أعيان العلماء وأركان الحكماء ، صاحب المراتب الجليلة والدرجات الرفيعة والأخلاق الحميدة والأقوال السديدة (2) ، ويقول د. أحمد أمين : هو من الفلاسفة الإسلاميين الذين لهم في علم الأخلاق مكانة سامية ومقام مرموق (3) .

ويذكر الدكتور محمد يوسف موسى : أن مسكويه بالرغم من تصنيفاته الكثيرة في العلوم المختلفة وفروع الفلسفة إلا أنه توفر على الأخلاق من بينها

---

(1) راجع (تاريخ الفلسفة في الإسلام) ترجمة أبي زيدة ص٢٢٧ – ٢٢٨ (النهضة المصرية والنثر الفني) د. زكي مبارك جـ٢ ص١٧٨ . (وابن مسكويه) د. عزت عبد العزيز ص١١٥ – ١٤٢ فقد نفى عنه كافة التهم التي وجهها إليه التوحيدي .

(2) راجع (نزهة الأرواح) جـ٢ ص٧٩ ، و(أخبار الحكماء) ص٢١٧ ، وروضات الجنان ص٢٤٥ ، والأمتاع والمؤانسة جـ١ ص٣٦ .

(3) ظهر الإسلام جـ٢ ص١٧٦ ، ١٧٧ .

بخلاف غيره من الفلاسفة كالفارابي وابن سينا فإن كلامهم في الأخلاق جاء في سبيل عرض المذهب الفلسفي العام ولهذا كانت شهرتهم بغير الأخلاق (١) .

ويقول د. فتحي الزغبي : والحقيقة أن هذا الكلام لا يمكن قبوله على علاته فمن الممكن قول أسبقية مسكويه في ميدان الأخلاق الفلسفية أو ما يسمى بالجانب العلمي من الفلسفة لأن الذين كتبوا قبله في الأخلاق بحثوها على أنها حكم وأمثال وعالجوها داخل إطار الأدب الخلقي أو الحكمة الأخلاقية لكن مسكويه قام بفلسفة الأخلاق بعد أن كانت حكماً ونقل الأخلاق نقلة جديدة بفلسفتها ، وإذا كان الجاحظ مثلاً قد سبقه في هذا المجال فإن مزية مسكويه تكمن في أنه وضع للأخلاق نظاماً شاملاً وفلسفة كلية أما الجاحظ وأمثاله فنقف هنا ونقف هناك من غير ترتيب ولا تبويب (٢) .

ويذكر الدكتور / صالح عضيمة : لا ننكر أن علم الأخلاق قد رسمت ملامحه وتوضحت شخصيته ، وتميزت هويته ، بفضل هذا المفكر الذي وضع كتابه (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق) فكان في أسلوبه فريداً ، وفي منحاة فريداً (٣) .

ويرى الدكتور / ماجد فخري أن مسكويه أعظم علم من أعلام الفكر الخلقي في مرحلته التي تميزت بالجانب الفلسفي ويذكر أنه يجب اعتبار مسكويه أمام الفلاسفة الخلقيين في الإسلام ، ليس من حيث أثره التاريخي وحسب بل من حيث المحتوى الأصلي لفلسفته الخلقية كذلك ، ثم أشار إلى دوره الرائد وأثره البالغ في تطور الفلسفة الخلقية في الإسلام (٤) .

---

(١) (تاريخ الأخلاق) د. محمد يوسف موسى ص١٨٦ مطابع دار الكتاب العربي ط٣ سنة١٩٥٣م .

(٢) (فلسفة الأخلاق عند مسويه) د. فتحي الزغبي ص٢٢ ، ٢٣ ، (ظهر الإسلام) د. أحمد أمين جـ٢ ص١٧٦- ١٧٨ - ١٨٠ - ١٨٩ لمزيد من التفصيل .

(٣) مقدمة الفوز الأصغر ص١ نقلاً من فلسفة الأخلاق عند مسكويه د. فتحي الزغبي ص٢٣ .

(٤) المرجع السابق ص٢٥ ، (معالم الفكر العربي في العصر الوسيط) كمال يزجي ص٢٩٢ .

واعتبره كمال يازجي رائد الفلسفة الخلقية ومن توابغ المفكرين في عصـــره (١) .

وقد وصفه كرادي فو بأنه مؤلف مبدع ، وذو الذهن الفلسفي وعده من أهم علماء الأخلاق في الإسلام ، كما وصفه في موضع آخر بأنه من أئمة مفكري الإسلام في الأخلاق .

كما أثنى عليه دى بور حينما ذكر أن مسكويه قد خلف مذهباً فلسفياً في الأخلاق لا يزال له شأن في الشرق إلى يومنا هذا (٢) .

وعن نتاجه الفكري في المجال الأخلاقي وسائر العلوم الإنسانية الأخرى ، فإن لمسكويه العديد من المؤلفات في شتى العلوم الإنسانية ولاسيما في المجال الفلسفي والتاريخي والطبي والأدبي والميدان الأخلاقي ، وهذه المصنفات ما بين مخطوطة ومطبوعة ، وما بين الكتب والمقالات والرسائل ، ويشهد مادحوه بأنه كان يتسم بثقافة واسعة ، وفكر ثاقب ، وغزارة علم واطلاع ، وعقل ناقد ، فبرز وذاع صيته في علوم عصره بل وفاق غيره في العديد منها ، وما يعنينا في هذا المقام وفي هذه الدراسة إبراز الجوانب التربوية وفلسفته الأخلاقية ، وكان المجال الأخلاقي والعناية بهذا العلم أساسياً ضمن مصنفاته بل يعد محور تفكيره وجوهره ، وكان الميدان الأخلاقي يغلب على مصنفاته الفلسفية والأدبية والتاريخية والطبية وغيرها .

وفي هذا الصدد يحدثنا د. فتحي الزغبي فيقول : إن الأخلاق تطغى على حدود ما خصص لها مسكويه من مؤلفات فتلقي ظلها على معظم كتبه الأخرى ، كما سنرى هذا مثلاً في كتابه (تجارب الأمم) فرغم أنه كتاب تاريخي إلا أن هدف وبغية مسكويه منه كانت أخلاقية حيث يهدف إلى الاعتبار بحوادث التاريخ واستمداد العبرة منها .

كما نلمس كذلك الأمر في كتابه (الفوز الأصغر) والكتاب يهتم ببيان أصول الديانات وحقائق النفوس البشرية ، وخصصه للجانب النظري من الفلسفة ومع ذلك عني فيه مسكويه بالجانب الأخلاقي كما تحدث في مبحث السعادة .

---

(١) (مفكرو الإسلام) كرادي فو ترجمة عادل زعيتر جـ١ ص١٥ .
(٢) (تاريخ الفلسفة في الإسلام) ص٢٣٩ ، ٢٤٣ .

وبلغ إحصاء ما ألف وصنف خمسة عشر مخطوطاً ، وتسعة كتب مطبوعة ، وتسعة عشر كتاباً مفقودة ، أي أن جملة ما ألفه تبلغ ثلاثاً وأربعين مصنفاً ما بين مقالة ورسالة وكتاب (١) .

ويمكننا إجلاء مصنفاته في علم الأخلاق وميدانه على النحو التالي :

أولاً : (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق) وهو أهمها وأشهرها على الإطلاق ، بل إنه يعد المصدر الأول والمرجع الأساسي في تصوير فلسفته الأخلاقية ، ومن أجل ذلك فقد طبع عدة مرات في الشرق ، وأكثرها في القاهرة، وهو كتاب ذائع الصيت ومشهور ومتداول في أيدي الناس قديماً وحديثاً وطبعت منه العديد من الطبعات لكنها بلا تحقيق علمي معتمد حتى كان للدكتور قسطنطين زريق (٢) قصب السبق في تحقيقه ونشره في أول طبعة محققة تحقيقاً علمياً بالاستناد إلى ما حفظ من مخطوطات ومذيلة بالهوامش والتعليقات وأطلق عليه اسم (تهذيب الأخلاق) دون إضافة وتطهير الأعراق ، بل بعض المصادر تشير إليه على أنه كتاب (الفوز الأكبر) و(الفوز الكبير) وقد رجح البعض كتاب التهذيب بأنه (الفوز الأكبر) (٣) إلا أنه هذا الرأي لا يعتد به ، وقد كان من الممكن قبوله ، ولولا أن هناك من الدلائل ما يؤكد رفضه ولا يمكن تجاوزها أو دفعها منها وأهمها :

أولاً : لا يوجد في تهذيب الأخلاق أي إيحاء أو أدنى إشارة تدل على أنه هو كتاب الفوز الأكبر ، ولو كان هو الكتاب الموعود به في الفوز الأصغر لما تأخر المصنف عن التصريح بذلك بل كان يجب أن يعلن ذلك ويصرح به .

ثانياً : ذكر الخوانساري في كتابه الروضات : أن مسكويه صنف في علوم الأوائل كثيراً ، وأن له كتاباً سماه (الطهارة في تهذيب الأخلاق) وبعد أن

---

(١) (فلسفة الأخلاق عند مسكويه) د. فتحي الزغبي ص٢٧ ، ٢٨ ، وقد نقل د. عزت عبد العزيز الذي قام معتمداً على المصادر القديمة والحديثة لمسكويه بهذا الإحصاء الشامل لمؤلفاته في أبوابها المختلفة انظر (ابن مسكويه) ص ١٢٥ – ١٤٢ د. عزت عبد العزيز ، لمزيد من الاستفادة في هذا الشأن والمرجع المذكور سلفاً .

(٢) سنة ١٩٦٦م .

(٣) (ابن مسكويه) د. عبد العزيز ص١٤٣ ، ١٣٥ .

أشار إلى كتاب (الفوز الأصغر) قال : وقد يحيل فيه الأمر إلى كتاب آخر سماه بالفوز الأكبر في مقابلة هذا الكتاب.

ثالثاً : ذكر أبو سليمان المنطقي في كتابه صوان الحكمة عن مسكويه وهو أعرف الناس به : أن له تصانيف كثيرة مثل : الفوزين الكبير والصغير في علم الأوائل وكتاب ترتيب السعادات ، ومنازل العلوم ، وكتاب تهذيب الأخلاق .

ولو كان كتاب التهذيب هو الفوز الأكبر لما ذكر عنوان الكتاب مرتين ، وما كان يشق على نفسه بالمسارعة إلى الوقوع في مثل هذا الخطأ .

ومن خلال كلام أبي سليمان المنطقي . والخوانساري يكون الفوز الأكبر بمثابة امتداد وتكمله لكتاب الفوز الأصغر وليس هو كتاب التهذيب (١) .

أهم محتويات كتاب (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق) :

إنه حسب تحقيق الكتاب كما حققه د.قسطنطين زريق فإننا يمكننا إبراز محتويات الكتاب وما اشتمل عليه من مقالات وموضوعات في مختلف قضايا الأخلاق وذلك على النحو الآتي:

يشتمل الكتاب ويحتوي على ست مقالات طوال :

في المقالة الأولي : عني مسكويه بإبراز مبادئ الأخلاق : النفس وقواها ، الخير والسعادة ، الفضائل والرذائل .

وفي المقالة الثانية : اهتم ببيان (الخلق وتهذيبه،والكمال الإنساني وسبيله) .

وفي المقالة الثالثة : عرض للخير وأقسامه ، والسعادة ومراتبها .

وفي المقالة الرابعة : أبرز ما يتعلق (بالعدالة) .

وفي المقالة الخامسة : وضح (المحبة والصداقة) .

وفي المقالة السادسة : فقد عالج فيها صحة النفس حفظها وردها .

---

(١) راجع تفصيل ذلك في مقدمة د. صالح عضيمة لكتاب (الفوز الأصغر) ص ١٢ ، ١٣ نقلاً من (فلسفة الأخلاق عند مسكويه) د. فتحي الزغبي ص٣٠ ، ٣٢ .

أما الطبعات القديمة تجعل الكتاب مؤلف من سبع مقالات وذلك بتقسيم المقالة الأخيرة إلى مقالتين :

السادسة : علاج لأمراض النفس .

والسابعة : الصحة على النفس .

وقد أشار العديد من العلماء والمؤرخين إلى أن كتاب التهذيب يعد من أشهر الكتب العربية والأخلاقية وأبلغها أثراً ، بل لعله أبرز صور للفلسفة الأخلاقية لدى مسكويه .

فالإمام محمد عبده أوصى بتدريسه في الأزهر إلى جانب كتاب الإحياء للإمام الغزالي ، وقد كان يحاضر الخاصة من تلاميذه في بيته ويشرح لهم كتاب التهذيب (1) .

ويرى الدكتور / توفيق الطويل أن كتاب التهذيب لمسكويه يعد أكمل علمية في مجال الأخلاق (2) .

ويذكر الدكتور / حسن شحاتة سعفان في بحثه عن هذا الكتاب أن أهميته ترجع إلى تقويم الأخلاق والسلوك على أساس دراسة علمية سليمة وفق المستوى الذي وصلت إليه العلوم آنذاك ، وانتهى إلى أنه يمثل العصر الذي وجد فيه أصدق تمثيل ويشهد باطلاع ضخم وعميق لمؤلفه (3) .

كما أجلى الدكتور / صالح عضيمة أن علم الأخلاق قد وسمت ملامحه وتوضحت شخصيته ، وتميزت هويته ، بعد أن وضع مسكويه كتاب التهذيب فكان في أسلوبه فريداً ، وفي منحاه فريداً ، حيث مازج فيه بين بنات الفكر وآيات الذكر فخلق مزاجاً تقبله الأنفس كلها ، وتستسيغه العقول وإن تباينت

(١) (زعماء الإصلاح في العصر الحديث) د. أحمد أمين ص٢٩٣ .

(٢) (فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها) ص١٥٩ .

(٣) (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لمسكويه) ص٥٧ ، ٥٨ سلسلة تراث الإنسانية .

ثقافاتها ، وزاوج فيه بين التحليل والتسليم ، فكان للعقل حجة ، وللإيمان محجة (١) .

كما يوضح الدكتور / كمال اليازجي أن مسكويه صرف همه إلى دراسة الأخلاق ، وأنتج فيه إنتاجاً قيماً ، حيث ترك لنا في فلسفة الأخلاق كتاباً فريداً هو تهذيب الأخلاق ، عالج فيه الموضوع من ناحيتيه النظرية والعملية وجمع فيه بين الأصول اليونانية والمبادئ الإسلامية ، وأفرغ مادته في سياق علمي منسجم (٢).

ثانياً : ومن مؤلفاته في علم الأخلاق (كتاب السعادة أو ترتيب السعادات) .

ثالثاً : جاويدان خرد وهي كلمة فارسية معناها : العقل الأزلي ، وهو اسم كتاب ألفه الحكماء القدماء بالفارسية معزو إلى الملك الأسطوري هو شنك أو شهبنج ثاني ملوك الأسرة الفارسية الأولى (٣) .

رابعاً: الفوز الأصغر .

خامساً : تجارب الأمم وتعاقب الهمم .

سادساً: الهوامل والشوامل بالاشتراك مع أبي حيان التوحيدي .

سابعاً : رسالتان لمسكويه هما في اللذات والالام ومقالة في النفس والعقل.

العنصر الثاني : مسكويه بين مادحيه وقادحيه :

يعد (مسكويه) علماً من رواد الفكر الفلسفي الأخلاقي في الإسلام ، إن لم يكن أشهرهم أو من أبرزهم على الإطلاق ، وقد نال شهرته وذيوعه في أوساط الفلاسفة الإسلاميين من خلال عنايته وتعمقه في مجال الأخلاق وتفرغه للبحث فيها دون سائر فروع الفلسفة ، وعلى الرغم من إجماع العلماء والباحثين على شهرة وذيوع صيته في الميدان الأخلاقي إلا أنهم تباينوا في نقده والحكم عليه وعلى فلسفته الأخلاقية .

---

(١) مقدمة تحقيقية لكتاب مسكويه (الفوز الأصغر) ص١٠ – ١١ نقلاً من (فلسفة الأخلاق عند مسكويه) د. فتحي أحمد الزغبي ص٣٥ ، ٣٦ .

(٢) (معالم الفكر العربي في العصر الوسيط) ص٢٩١ ، نقلاً من المرجع السالف الذكر .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول ص٢٧٨ .

فمنهم من بالغ في مدحه وتمجيده ، ووصمه بالريادة والقيادة في علم الأخلاق عند المسلمين ومن رواد الباحثين العرب في تاريخ الفكر الأخلاقي (١) ، كما أطلق عليه بعضهم : المعلم الثالث (٢) مثلما كان (الفارابي) المعلم الثاني بناء على متابعتهما لمعلمهما الأول معاً (أرسطو) .

ومنهم من بالغ في قدحه والنيل منه ، والاستهانة به ، ورموه بأمور شنيعة تدحض من مكانته الدينية ، ويرون أنه كان مضطرب التفكير ، وأن فلسفته تخلو من الأصالة والابتكار والإبداع ، وليس له إلا فضل الاقتباس والتلفيق ، حيث رموه بأنه هو الفيلسوف الوراق ، أو النساخ لفلسفة أرسطو في الأخلاق ، كما شنعوا عليه بأقوال تخرجه عن العقيدة الإسلامية وأحكامها وساير العقل واطمأن إليه ولم تتأثر فلسفته الأخلاقية بتعاليم الدين الإسلامي ، وليس عنده فكرة العقاب أو الثواب في عالم آخر ، وأن السعادة لديه سعادة دنيوية لا تتعلق بعالم الحياة الأخرى وهذه من وجهة نظري ادعاءات مفتراه ، كما سأجلي ذلك بعد .

والذين بالغوا في الثناء عليه قد اختلفوا في الوجه الذي يمدحونه بسببه ، حيث يذهب البعض إلى أنه كان في دراسته لعلم الأخلاق شديد الالتزام بالدين الإسلامي يتقيد بأحكامه ، ويلتزم بشرائعه وأنه كان يحرص دائماً على التوفيق بين الفلسفة والدين في مجال الأخلاق (٣) .

بينما ذهب بعضهم : إلى أن مسكويه كان في دراسته للأخلاق فيلسوفاً عقلانياً يعتمد على العقل اعتماداً كلياً ، ولا صلة له مطلقاً بالدين ، حيث عالج الجوانب الأخلاقية من الوجهة الفلسفية المجردة من الناحية الدينية ، وأغفل الشريعة الإسلامية ولم يحفل بها في هذا الميدان ، وبذلك فإنه من الخطأ القول : أن مسكويه حاول التوفيق بين الفلسفة والدين في مجال الأخلاق .

وفي هذا الصدد يحدثنا د. زكي مبارك فيقول : (إن مسكويه لم يقف في دراسة الأخلاق عند الحدود الدينية التي كان يكتفي بها الصوفية والناسكون

---

(١) (الأخلاق) د. أحمد أمين ص١٣٧ . دار الكتاب العربي ببيروت .

(٢) (ابن مسكويه فلسفته الأخلاقية ومصادرها) د. عبد العزيز عزت ص٢١٧ ط١ مصطفى الحلبي سنة ١٩٤٦م .

(٣) (ظهر الإسلام) د. أحمد أمين جـ٢ ص١٧٨ – ١٨٠ دار الكتاب العربي ط٥ سنة ١٩٦٩م .

والزاهدون ، بل ساير العقل وصاحبه ، وأنس به واطمأن إليه ، ثم اتخذه أساساً للأخلاق ، فصار العقل عنده نظيراً للوحي الإلهي – في عرف المتبتلين – وما زال يدور حول العقولات في نظام السلوك حتى صار الخلق المعقول أحب إليه وأقرب إلى نفسه من الخلق المنقول ، فهو لا يفعل الخير لأنه أمر به ، ولا يجتنب الشر لأنه نهي عنه ، وإنما يفعل ويترك وفقاً لما اطمأن إليه عقله ، وأمر به وجدانه ، في حدود النفع والمنطق والذوق) (١) .

ويقول د. عبد العزيز عزت أنه المفكر الإسلامي الأول في ميدان الأخلاق ولهذا يلقبونه (بالمعلم الثالث) ، لأن المعلم الثاني (الفارابي) لم يشمل تعليمه كل فروع فلسفة – المعلم الأول – أرسطو ، وإنما اختص بالنبوغ في الناحية النظرية ، وبقيت الناحية العملية مهملة إلى ظهور رجلها الأول مسكويه (٢) . وينتهي في دراسته عن تفكير مسكويه الأخلاقي إلى أنه كان بعيداً عن الدين ، حيث لم تتأثر الأخلاق عنده بتعاليم الدين الإسلامي ، واتخذت على عكس ذلك المسحة الفلسفية المحضة (٣) .

ويستدل على ذلك بعدة أمور (٤) أذكر منها مثلاً قوله : إن فكرة الجزاء عند مسكويه فكرة فلسفية تتعلق بما يفرضه الإنسان على نفسه وبنفسه من العقاب الداخلي وهو تأنيب الضمير أو الحرمان العقلي عن بعض الماديات لتقوية النفس ، وجعلها تتعود طريق الفضيلة ، ولهذا لا تجد عند مسكويه فكرة العقاب أو الثواب في عالم آخر غير عالمنا ، وأن الذي يحاسب الإنسان ليس بكائن أرقى منه بيده المثوبة والعقاب ، ومسكويه في هذا يبتعد عن النزعات الدينية كل الابتعاد . وبناء على ذلك فإن السعادة في نظر د. عبد العزيز عزت سعادة دنيوية لا تتعلق بعالم آخر غير عالمنا ولا تمهد لحياة أخرى أرقى منها (٥) .

---

(١) (النثر الفني في القرن الرابع) د. زكي مبارك جـ٢ ص١٨١ – ١٨٢ نشر دار الجيل بيروت سنة ١٩٧٥م .

(٢) (ابن مسكويه ...) د. عزت عبد العزيز ص٨ .

(٣) المرجع السابق انظر لمزيد من الاستفادة ص٣٤٨ – ٣٤٩ .

(٤) المرجع السابق نفسه انظر الصفحات من ص٣٤٧ – ٣٥٣ لمزيد من الاستفادة .

(٥) المرجع نفسه ص ٣٥١

وهذه أقوال كاذبة وادعاءات شنيعة في حق فيلسوف أخلاقي مثل مسكويه فضلاً عن أنها مجردة من أي دليل أكاديمي يرجحها في رحابة وبساطة ، وتفتقد للواقعة الدينية ومن ثم انبرى أحد رواد الفكر الإسلامي وهو الدكتور / فتحي محمد الزغبي – أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر الشريف – للرد على هذه الدعاوى فسجل قائلاً :

(لا أدري كيف انتهى د. عزت إلى هذا الاتهام الشنيع لمسكويه ، ومن أين جاء به ، والذي يظن – ظناً واهماً – أنه محمدة له ، وكلامه يخبر بأن مسكويه ينكر الجزاء الأخروي ، ولا يشير إلى الثواب والعقاب في الآخرة .

ولكي يتبين لنا مدى مبالغة د. عزت في حق مسكويه أو بمعنى أصح مدى تجنيه على مسكويه لابد من الإشارة إلى ما يلي :

أولاً : لقد بنى الدكتور كلامه على بعض النصوص التي وردت في كتابه (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق)(١) ومن يتأمل هذه النصوص يلمس أن مسكويه لا يقصد بأقوال هذه إنكار الجزاء الأخروي ولا يهدف مطلقاً إلى ما انتهى إليه د. عزت وأمثاله وهو الدكتور – أحمد صبحي – الذي تبنى وجهة نظر د. عزت حيث يقول : (وبالرغم من إشارته إلى أهمية الشريعة في الأخلاق فإن فلسفته الخلقية بعيدة تماما عن روح الدين – الإسلامي – فلا إشارة فيها إلى عناية إلهية ولا أهمية الحساب الأخروي في الأخلاق)(٢) .

وإنما يدعو مسكويه من يريد المحافظة على صحة نفسه أن يعاقب نفسه مادياً بعقوبات يفرضها على نفسه ، ونفسياً بأن يقوم بتوبيخ نفسه ولومها وتعنيفها ، وهذا لون من ألوان التهذيب الأخلاقي يعرف بتكليف العلاج بالضد ، وهو لون مألوف في المجال الفلسفي أو المجال الصوفي ، بدليل أن الغزالي قد أشار إلى هذا اللون من العلاج في كتابه الأحياء ضمن بيانه تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النفس (٣) .

---

(١) المرجع المذكور ص١٨٦ ، ١٨٧ .

(٢) (الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي) د. أحمد صبحي ص٣١٣ دار المعارف ١٩٦٩م .

(٣) انظر إلى النص من أول (وكما أن اللغة ...) كتاب الأحياء جـ٣ ص٦١ طبعة دار المعرفة ببيروت .

ثانياً : ومما يدل على ذلك أن مسكويه قد نص على الجزاء الأخروي من النعيم والثواب في الجنة ، والجحيم والعقاب في النار في مواضع كثيرة من كتابه (تهذيب الأخلاق ......) .

انظر إليه في معرض حديثه عن فضل علم الأخلاق ذكر أن هذا العلم أو هذه الصناعة أي صناعة الأخلاق : عي أفضل الصناعات كلها ، لأنها الصناعة التي تعني بتجويد أفعال الإنسان حتى تصدر عنه أفعاله كلها تامة كاملة بحسب جوهره ورفعه عن رتبة الأخس التي يستحق بها المقت من الله (ﷻ) والقرار في العذاب الأليم (١) .

ويذكر أيضاً في معرض حديثه عن خير الإنسان وسعادته وأن الشرور تشغله عما عرض له من تزكية نفسه التي تنتهي به إلى الملك الرفيع والسرور الحقيقي وتوصله إلى قرة العين التي قال الله تعالى : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (٢) . وتبلغه إلى جوار رب العالمين في النعيم المقيم ، واللذات التي لم ترها عين ولا سمعتها أذن ولا خطرت على قلب بشر (٣) .

كما يبين مسكويه أيضاً وهو بصدد حديثه عن الموت أن جوهر النفس إنما استفاد بالحواس والأجسام كمالاً ما ، فإذا كمل بها ثم خلص منها صار إلى عالمه الشريف القريب إلى بارئه ومنشئه تعالى وتقدس ، وهذا الكمال الذي يستفيده بهذا العالم الحسي قد بيناه وعرفناك الطريق إليه بما سلف في هذا الباب ، وأنه السعادة القصوى للإنسان وأعلمناك ضده ، الذي هو الشقاء الأقصى له ، وبينا مع ذلك مراتب السعادة ومنازل الأبرار ودرجاتهم من رضوان الله (ﷻ) وجنته التي هي دار القرار ، كما بينا لك مراتب أضدادهم من سخطه ودركاتهم من النار التي هي الهاوية بلا قرار نسأل الله حسن المعونة على ما يقربنا منه إنه جواد كريم رؤوف رحيم (٤) .

---

(١) راجع (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق) لابن مسكويه ص٣٦ ، ٣٧ .
(٢) سورة السجدة : من الآية (١٧) .
(٣) المرجع الابق ص١٣ ، ١٤ .
(٤) (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق) لمسكويه ص٢١٦ ، ٢١٧ .

وهذه النصوص وغيرها كثيرة في نتاجه الفكري تؤكد في صراحة على أهمية إيمانه بالجزاء الأخروي في فلسفته الأخلاقية ولم يغفله أو ينكره كما ادعى د. عزت ، د. أحمد صبحي ، ونص على أنه هناك سعادة أخروية في عالم آخر بجانب السعادة الدنيوية في عالمنا (١) ، وإن كان في بعض نصوصه ما يؤكد مثلاً – أنه ابتعد فيها عن الدين حيث عالج مسائلها معالجة فلسفية محضة وأغفل فيها جانب الدين فإنه يرجع إلى تأثره ببعض الفلاسفة اليونانيين وبعض فلاسفة الفرس واستقاء منابع فلسفته ومصادره من مصادر شتى على نحو ما سنجلي ذلك في معرض حديثنا عن مصادر فلسفته من هذه الدراسة – حيث المصادر التي رجع إليها مسكويه والمنابع التي استقى منها فلسفته الأخلاقية كثيرة ومتنوعة فمنها ما كان يونانياً ، ومنها ما كان فارسياً ، ومنها ما كان إسلامياً ، وسيتبين مدى متابعة مسكويه وتأثره بهذه المصادر وتقليده لها بنقله منها نقلاً حرفياً ، ومدى تصرفه في بعض أو كثير منها ومدى محاولته التوفيق بين هذه المصادر أو مزجها بالشريعة الإسلامية .

---

(١) (فلسفة الأخلاق عند مسكويه) د. فتحي أحمد الزغبي في مقدمة كتابه بتصرف ، ط٢ ١٩٩٨م .

المبحث الثاني

مذهب (مسكويه) ومنهجه

فـــي

الفلسفة الخلقية والتربوية

المبحث الثاني

مذهب (مسكويه) ومنهجه في الفلسفة الخلقية والتربوية

إن المتأمل فيما سلف من نتاج فكري في المجال الأخلاقي سيلمس بجلاء أبرز الجوانب الفلسفية الأخلاقية لدى مسكويه حيث اهتم في سائر ما ألف وصنف بالمجال الأخلاقي وكانت صورة مجسدة لما تأثر به في حياته ، وما كان يدور في بيئته وعصره وحياته العامة ، كما تمثل مذهباً ومنهجاً فلسفياً في فلسفة الأخلاق استنبطه من ثقافات مختلفة (يونانية وفارسية) ثم جمع بينها وبين مبادئ الشريعة الإسلامية وأحكامها على نحو ما سنشير إليه في هذه الدراسة .

وكان يهدف من وراء ذلك إلى إرشاد الناشئين إلى كريم الأخلاق ، ونبيل المزايا وحثهم على كريم الفعال ، وصالح الأعمال حتى لا يضلوا كما ضل هو – في بعض مراحل حياته – ولا يضيعوا العمر في ما أضاعه هو فيه ، واتخذ إلى ذلك سبيل الإرشاد بالمثل والإقناع بالدليل ، وبذل تحليل مسكويه لقوى النفس الإنسانية وطريقة تهذيبها على معرفته بمكونات النفس وعلى ما عاناه في إحكام مذهبه بعدما عانى من تهذيب نفسه ، فجاء مذهبه جامعاً بين البحث النظري والتوجيه العملي .

كما إن من العلماء من استدل بالعهد الذي عاهد به نفسه والوصية التي تسمى بوصية مسكويه على أن الأخلاق عنده لم تقتصر على الجانب النظري فقط وإنما مازجت وجمعت بين النظر والتطبيق العملي حيث نتجت عن خبرته العملية ، وسلوكه في الحياة عامة .

وهذه الوصية عدها الباحثون مذهبه ودستوره الأخلاقي الذي يبرز فيها مختلف آرائه ونظرياته الأخلاقية في سائر ما ألف وصنف ، ويقيم فيها قواعد فلسفته الأخلاقية ، ولهذا كانت من الأهمية بمكان لأنها ترسم لنا صورة الفيلسوف الأخلاقي كما يراه مسكويه ، كما نلمح بوضوح طابع مذهبه في الأخلاق وسمات هذا المذهب الذي أراد به السعادة ولمن يسعده جده بالأخذ به .

وقد راعى مسكويه في مذهبه الأخلاقي والإصلاحي شاملاً الصغار والكبار ، والخاصة والعامة ، وحاول في كتبه أن ينقذ الناس مما هم فيه من انهيار في القيم وفساد في الأخلاق .

وفي كتابه تهذيب الأخلاق أشار إلى أهمية الشريعة وأصول الدين في تربية الإنسان وخاصة في أوائل عمره (تأديب الأحداث ورياضة الصبيان) ، وحث الآباء على أن يأخذوا أبناءهم بأساليب ذلك حتى تقوى نفوسهم على حب الخير ، وتمهد إلى حياة الفضيلة ، فالدين وتعاليمه في نظر مسكويه إذن خطوة سامية لازمة للأخلاق وخصوصاً لطفولة الإنسان وحداثته لأنه في هذا العهد لا يناقش ولا يجادل وإنما يسمع ويطيع .

وهاهي نص وصيته (العهد) دون تدخل أو تعليق :

(بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عاهد عليه الله أحمد بن محمد وهو يومئذ آمن في سربه ، معافى في جسده ، عنده قوت يومه ، لا تدعوه إلى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ، ولا يريد بها مراءاة مخلوق ، ولا استجلاب منفعة ، ولا دفع مضرة منهم ، عاهده على أن يجاهد نفسه ، ويتفقد أمره ، فيعف ، ويشجع ، ويحكم .

وعلامة عفته : أن يقتصد في مآرب بدنه ، حتى لا يحمله الشره عل ما يضر جسمه ، أو يهتك مروءته .

وعلامة شجاعته : أن يحارب دواعي نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ، ولا غضب في غير موضعه .

وعلامة حكمته : أن يستبصر في اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شيء من العلوم والمعارف الصالحة ، ليصلح أولاً نفسه ويهذبها ، ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التي هي العدالة .

وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة ، ويجتهد في القيام بها ، والعمل بموجبها ، وهي خمسة عشر باباً :

إيثار الحق على الباطل في الاعتقادات ، والصدق على الكذب في الأقوال والخير على الشر في الأفعال ، وكثيرة الجهاد الدائم ، لأجل الحرب الدائم بين المرء وبين نفسه ، والتمسك بالشريعة ، ولزوم وظائفها ، وحفظ المواعيد حتى ينجزها .

وأول ذلك ما بيني وبين الله (ﷻ) ، وقلة الثقة بالناس بترك الاسترسال ، ومحبة الجميل لأنه جميل لا لغير ذلك ، والصمت في أوقات حركات النفس

للكلام حتى يستشار فيه العقل ، وحفظ الحال التي تحصل في شيء حتى تصير ملكة ولا تفسد بالاسترسال والإقدام على ما كان صواباً ، والإشفاق على الزمان الذي هو العمر ليستعمل في المهم دون غيره ، وترك التواني ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد لئلا يشتغل بمقالتهم وترك الانفعال لهم ، وحسن احتمال الغني والفقر والكرامة والهوان بجهة وجهة وذكر المرض وقت الصحة ، والهم وقت السرور ، والرضا عند الغضب ، ليقل الطغي والبغي ، وقوة الأمل وحسن الرجاء والثقة بالله (ﷻ) وصرف جميع البال إليه ، فإذا يسر الله تعالى إصلاح نفسه بما جاهد عليه تفرغ بعد ذلك إلى إصلاح غيره ، وعلامة ذلك أنه لا يبخل على أحد بنصيحة ولا يمنع أحداً رتبة يستحقها ، ولا يستبد دون الأخيار بما يتسع له فإذا أكمل الله له ذلك ورفع عنه العوائق والموانع ، وبلغه ما في نفسه من هذه الفضائل ليصير بها من أوليائه الفائزين ، وأنصاره الغالبين ، وعباده الآمنين ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقد استجاب له بحمده إلى كل ما دعاه به ووثق بعد ذلك من جانبه إلى كل ما وكله إلى جوده من إعطائه ما لا يحسن أن يرغب فيه ، وإعانته مما لا يحسن أن يستعيذ منه ، وهو حسبه وعليه توكله ، ولا قوة إلا به ، وهذا آخر العهد ، وهو غني عن تقريظي ، ودلالتي على حسنه لظهور الحق عليه ، فمن جعل هذه بنية صدره وعقيدة سره ووسيلة بينه وبين ربه فهو الفيلسوف الحق المبرز المحقق) أ . هـ (1) .

ومن هذا العهد الذي قطعه على نفسه تجلى من خلاله طابع مذهبه في الأخلاق وسماته ، هذا المذهب الذي أراد به السعادة لنفسه ولمن يسعده جده بالأخذ والاقتداء به ، والسير على منواله .

وفي هذا يقول د. أحمد أمين : أن هذا العهد أو هذه الوصية التي أوصى بها من يأتي بعده تعد من خير الوصايا لأنها تدل على أنه كان حي الضمير يحاسب نفسه ويتمنى الخير والتهذيب لمن يأتي بعده ، وجرى فيها على وصية قس بن ساعدة ولقمان الحكيم وغير ذلك مما أثر عن الحكماء (2) .

---

(1) راجع معجم الأدباء لياقوت ج5 ص17 – 19 ، والمقابسات لأبي حيان التوحيدي ص323 – 326 ، و(فلسفة الأخلاق) د. فتحي الزغبي ص58 – 60.

(2) (ظهر الإسلام) ج2 ص179 .

ويقول د. أحمد عبد الحميد الشاعر : يدور مذهب فيلسوفنا (مسكويه) في الأخلاق على السعادة فهي الغاية التي يهدف إليها من فلسفته الخلقية ، وقد ترك لنا صورة مجملة لمذهبه وهي ماثلة في ذلك العهد الذي أخذه على نفسه فيما بينه وبين ربه تعالى ... ثم يقول : هذا هو عهد مسكويه وهو أصدق تعبير وأوضح صورة مجملة لمذهبه وفلسفته الأخلاقية وعقيدته وسلوكه في الحياة ، فهو يبين لنا أبعاد المذهب من معرفته بالنفس ومجاهدتها ، والتمسك بفضائلها المختلفة والتزام بالشريعة – الإسلامية – والعمل بها ، ورعاية الحرمات في الأقوال والأفعال والاعتقادات وكل ذلك عناية بإصلاح النفس أولاً ، ثم بعد تمام إصلاح النفس يكون الانتقال إلى إصلاح الغير بحسن المعاشرة والنصيحة (١) .

وفي كتاب السعادة يرسم طريق الخير للخاصة من الناس الذين تيسرت لهم سبل الثقافة ورغد العيش وأوقات الفراغ ، فأخذ ينصحهم باتباع الفضائل النظرية والإقبال على شتى المعارف العقلية ، وذلك بالاطلاع على كتب الفلسفة والإفادة منها مبيناً أن لذة التفكير لا تعادلها لذة ، ودونها لذات البدن وشهواته التي ينصرف ذوو اليسار إليها عادة لهذا نجده يضع تقسيمات دقيقة للعلوم على طريقة ومنهج أرسطو ويحدد أي الدراسات أجدى أن يبتدأ بها ، والمدة اللازمة لإتقانه والغاية التي يبتغيها الإنسان من إجادة التفكير وحسن النظر وغير ذلك من الأمور التي يعتقد أنها تصلح من حال الطبقة الخاصة وتجعلهم مثلاً صالحاً لأن يقتدى به عامة الناس .

كما أنه في كتابه (تهذيب الأخلاق) نجده يعرض لأهم الفضائل التي يجب أن يأخذ بها الناس عامة في حياتهم الدنيوية ليكونوا قوماً فضلاء تسود بينهم المودة والمحبة ، فيتحدث عن أمهات الفضائل كالحكمة والشجاعة والعفة والعدالة وما يتفرع عنها من فضائل ثانوية تهم الناس في دنياهم .

وهو في هذا الكتاب يبحث عن إنقاذ الناس من الرذائل وما هم فيه واقعياً من شرور حتى يتطهر المجتمع من براثن السوء ، ويصبح أعضاؤه كالبنيان يشد بعضه بعضاً لا كالذئاب يعتدي كل منهم على أخيه ، ولهذا فهو يرى أن أم الفضائل هي المحبة وهي العدالة الاجتماعية ، وإذا سادت بين عامة الناس فإنها

---

(١) (مناهج البحث الخلقي في الفكر الإسلامي) ص٢١٦ – ٢١٨ بتصرف يسير ط١ دار الطباعة المحمدية سنة١٩٧٩م.

تنقذ المجمع من انتشار روح الفردية وطغيان نزعة الأنانية ، فبفضلها يقوم الإخاء بين الحاكم والمحكوم ، والمساواة بين سائر الأفراد البشرية دون اعتبار لمولد أو ثروة أو جاه ويقوى الحياء في ضمير كل فرد فيحترم ماله من حق وما عليه من واجبات .

ومن ثم يحرص مسكويه في فلسفته الخلقية على أن يرسم منهجاً للإصلاح الشامل منهجاً يجعل الإنسان – الذي يلتزم منذ حداثته بأسسه – إنساناً فاضلاً كاملاً يجمع بين الفضائل الخلقية ، والفضائل العقلية ، ويرسم السبيل لعلاج الإنسان المريض بالأمراض النفسية أو الخلقية ، فالنفوس لها رذائلها وأمراضها كما أن الأجسام لها أمراضها وجراحها ، ومن مهمة رجل الأخلاق تحديد دواء النفس ورسم الطرق الصحيحة لعلاجها حتى تعود إليها الصحة ويحيا الإنسان حياة الفضيلة .

ويمثل التفكير الأخلاقي عند مسكويه دورة فكرية منسجمة فبالرغم من أنه قرأ كثيراً وتأثر بأكثر من واحد من فلاسفة اليونان غلا أن تأثره بهم كان عن فهم وإدراك فنراه يدرس الأخلاق التي يجب أن يؤدب بها الأحداث لتتأصل حياة الفضيلة في نفوسهم ويتبعوها فيما بعد عن إدراك وإرادة ثم يتناول خلق الرجل العالم الذي يسعى وراء السعادة القصوى بعمله وفلسفته ثم يعرض لخلق الرجل العادي في دنياه الذي يسعى إلى السعادة الأخلاقية عن طريق الفضائل العملية ، ثم يعرض بعد هذا إلى خلق الرجل الضال كيف يمكن هدايته بإرشاده إلى أسباب ضلاله ومرضه النفساني حتى يعالجه ويشفى منه ويعود إلى صحته الأخلاقية (١) .

فلم يظهر مسكويه فيلسوفاً نظرياً يقدر النظريات فحسب أو يكتب في الأخلاق ليسجل آراءه في نظرياته فقط ، بل كان عملياً أيضاً حيث يكتب وهدفه الوصول عملياً لتعود الأخلاق الفاضلة والتخلق بها ، ومن ثم نراه يرسم الخطط ويعني بالتفاصيل ليصل بقارئيه إلى الهدف الذي يريد ، حيث كان يبحث في

---

(١)انظر (ابن مسكويه) د. عبد العزيز عزت ص٣٥٣ وراجع ص٧٥ – ٧٦ وراجع كتاب (الأخلاق) د. عبد المقصود عبد الغني ص٢٧٠ – ٢٧١ .

الفضيلة ويبينها ويبحث في السعادة ويحددها ثم يتبع هذاك وذلك برسم الخطة التي تؤدي للظفر بهما (1) .

وبناء على ما سلف ذكره يمكن القول بأن تفكير مسكويه الأخلاقي قد شمل الناحيتين النظرية والعملية .

أما الجانب النظري فيبحث فيه عن الخلق وطبيعته بين الموهبة والاكتساب ويبحث فيه عن الفضيلة وأنواعها ، ويبحث فيه عن الخير الأقصى والسعادة وسماتها بعد أن يؤسس كل هذه المباحث على دراسة النفس وقواها .

أما الجانب العملي فإنه يشتمل على تأديب الأحداث ورياضة الصبيان وطب النفوس حيث ينقسم هذا الطب النفساني بدوره إلى قسمين :

أحدهما وقائي ، والأخر علاجي (2) .

---

(1) (فلسفة الأخلاق) د. محمد يوسف موسى ص٨ .

(2) انظر لمزيد من الاستفادة في هذا الموضوع (فلسفة الأخلاق عند مسكويه) د. فتحي الزغبي ص٥٦- ٦٤ .

المبحث الثالث

أسس المنهج الفلسفي الأخلاقي والتربوي لدى مسكويه

المبحث الثالث

أسس المنهج الفلسفي الأخلاقي والتربوي لدى (مسكويه)

يعتمد (مسكويه) في إجلاء فلسفته الأخلاقية والتربوية على الاستقراء العقلي والتجربة الإنسانية فقد تأثر تأثراً بالغاً في دراسته للمجال الأخلاقي بما كان يدور في حياته العامة وما انطوى عليه عصره الذي عاش فيه من فساد وانحلال وما ساده من انحراف وتدهور في الأخلاق بين العامة والخاصة ، فضلاً عن واقع تجاربه الذاتية والنفسية وما وقع منه من استغراق في الملذات والسعي وراء الشهوات فهو من تتبعه واقع تجربته الشخصية ثم واقع أحوال الناس من حوله ، فقد عني بالنفس الإنسانية ودرس طبيعتها وأغوارها وكوامنها والبواعث المحركة لها وجهتها وغايتها في الحياة ساعده على ذلك كله فكره وثقافته وحدة ذهنه وصفاء نفسه وصدق تجربته وسعة إطلاعه .

وفي هذا يقول د. أحمد عبد الحميد الشاعر مبيناً منهجه الأخلاقي (١) وفي مسيرتنا مع فيلسوفنا في منهجه الأخلاقي نجده قد سار في هذه الخطوات :

أولاً : البحث في أغوار النفس الإنسانية وقواها فهذه نقطة البدء والانطلاق عنده .

ثانياً : البحث في الخلق ومقياسه وإمكانية تغييره وكيفية صدور الفضائل عن النفس الإنسانية .

ثالثاً : تحديد ماهية الخير عند الإنسان وتعيين الغاية التي يقصد إليها ويرى فيها سعادته الكاملة وهناءته العظمى يجب أن تحدد ماهية الإنسان وما امتاز به على سائر الموجودات وصولاً لماهية الخير والسعادة ومراتب كل منها عند الإنسان وغيره .

رابعاً : طبيعة الإنسان وتميزه عن سائر الموجودات بأنه مميز ناطق له غاية سامية هي الذروة لغايات جميع الموجودات .

خامساً : بيان لحكمة الصناعات وحكمة الطبيعة والإنسان والنفس والفطرة البشرية والكمال الإنساني ، وحكمة الشرع في اختلاف السعادات .

---

(١)(مناهج البحث الخلقي في الفكر الإسلامي) ص٢١٩ ، ٢٢٠ بتصرف .

سادساً : كما اهتم بضرورة العناية بالجوانب التربوية في حياة الإنسان في كافة أحواله ومراحل نموه ثم أبرز أنواع التربية ولعل من أهمها : التربية النفسية ، والتربية الاجتماعية ، والتربية الصحية ، وعني عناية خاصة بالصحة النفسية (الطب النفسي الوقائي ، الطب النفسي العلاجي) وسنوضح ذلك جليا من خلال عرضنا لأهم وأبرز الجوانب التربوية والأخلاقية ونظرته للنفس وقواها والخلق والفضيلة والخير والسعادة من هذه الدراسة وذلك من خلال عرضنا لنماذج مما ألف وصنف .

وعن طابع هذا المنهج الفلسفي الأخلاقي لدى مسكويه وأهم سماته وخصائصه يجدر بي أن أسجل في بيان هذا ما ذهب إليه أستاذنا الدكتور / أحمد عبد الحميد الشاعر فيقول في كتابه (مناهج البحث الخلقي في الفكر الإسلامي) (١) :

أولاً : تعتبر النزعة الفلسفية هي الطابع العام في فلسفة مسكويه التربوية والأخلاقية مذهباً ومنهاجاً ، وهي منطلق أفكاره في سائر ما ألف وصنف ، ومتغلغلة في جميع جزئياته ، ويرجع ذلك إلى سعة إطلاعه وسرعة بديهته ورجاحة عقله ، وتنوع ثقافته ، وتأثره بشتى الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية والعربية والدينية الإسلامية .

يضاف إلى هذا ما كان سائداً في عصره من موجة الفصل بين الفلسفة والدين ، إلا أن (مسكويه) في فلسفته الأخلاقية التربوية حاول أن يقيم مذهبه ومنهجه على أساس مزج الفلسفة بالدين ، إلا أن استشهاداته الدينية التي أتى بها في مؤلفاته ونتاجه الفكري كانت نادرة ويسيرة بالإضافة إلى تأثره بما سلف من فلسفات فغلبت عليه النزعة الفلسفية على النزعة الدينية مما دفع أحد الباحثين (دي بور) إلى القول بأنه (لم يفلح في التوفيق بين النظريات اليونانية وبين أحكام الشريعة الإسلامية) (٢) ، ومع ذلك لا ينحرف عن الدين ولم يشذ عن عقيدته كما رماه الباحثين على نحو ما هو جلي في هذه الدراسة .

ثانياً : ومن خصائص منهج (مسكويه) في فلسفته الأخلاقية والتربوية أنه ارتكز على الاستقراء العقلي وعني عناية بالغة بتتبع أحوال الناس في سلوكهم

---

(١) انظر إليه ص ٢٧٠ – ٢٧٤ بتصرف لمزيد من الاستفادة .

(٢) (تاريخ الفلسفة في الإسلام) ص ٢٤٣ .

وأسلوب حياتهم والتعرف على وجهاتهم وغاياتهم التي يبغونها واضعاً يده على كافة الوسائل والأساليب التي يسلكونها .

ثالثاً : ومن سمات مذهب (مسكويه) ومنهجه في فلسفته الأخلاقية والتربوية أنه ارتكز على المشاهدة والتجربة ، فما جاء في مؤلفاته من نظريات أخلاقية وتربوية صدر عن مشاهدة لواقع عصره وتأثره به فضلاً عن تجاربه الذاتية التي مر بها في أطوار حياته ، ولاسيما التجارب الإنسانية ومشاهداته الحية لها .

فكتابه (تجارب الأمم) فهو وإن كان يعني بالدراسات التاريخية إلا أنه يهدف إلى غرض أخلاقي كما يدل عليه اسمه وأخذ العبر والدروس من سير الأمم ليعتبر المعتبرون ويتذكر أولو الألباب كما صرح في كتابه (1).

وأما كتابه (جاويذان خرد) أي العقل الأزلي فقد عني فيه بجمع حكم العرب والفرس والهند واليونان أعظم الأمم في عصره ، وما هذه الحكم والأمثال إلا صور تعكس تجارب الإنسانية والفلسفات الشعبية وتفصح عن أخلاقيات هذه الأمم واتجاهاتها ووجهتها في واقع الحياة .

رابعاً : ومن ملامح مذهبه ومنهجه التربوي والأخلاقي – أيضاً – أنه ارتكز على الدراسة النفسية لطبيعة من حوله من الناس ، مستهلة ذلك بالتعرف على طبيعة النفس وقواها وكيفية صدور الفضائل عنها ثم اهتمامه بمراعاة الجوانب التربوية والأخلاقية والصحية معتمداً في هذه الركيزة النفسية على دعامتين : الأولى : الجانب النظري ، والثانية : الجانب العملي ، فمزج في مذهبه ومنهجه الأخلاقي والتربوي بين النظرية والتطبيق ، ثم هو في الجانب العملي اهتم بالجانب الوقائي والعلاجي لطب النفوس وتربية الأحداث ورياضة الصبيان ، ثم تربية النفس الإنسانية على وجه العموم ، وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن مسكويه كان طبيباً نفسياً لأصالة معرفته بأغوار النفس وكوامنها وخفاياها .

خامساً : ارتكز (مسكويه) في مذهبه ومنهجه الأخلاقي والتربوي على النزعة الأرستقراطية ، فتفكيره لم يوضع للعوام إلا في رسالته (تأديب الأحداث

---

(1) تهذيب الأخلاق ...) ص٥٣ – ٥٤ .

ورياضة الصبيان) وإنما للخواص وإلا في ما يقال : إن نظرياته وضعت للعامة والخاصة وإن طغت عليه نزعة الخواص الأرستقراطية ومحبي الفلسفة والتفـلسف .

سادساً : ومن طابع مذهب ومنهج (مسكويه) في فلسفته التربوية والأخلاقية الجمع بين الفلسفتين النظرية والعملية ، فهو لم يقف بمنهجه عند حد أي من الفلسفتين فحسب وإنما جمع بينهما لأنهما طريقا السعادة القصوى عنده ، والأولى : واضحة في مباحثه عن الخير والسعادة ومراتبها وطرق الحصول عليها ، والثانية : واضحة في نظرياته عن الفضيلة والفضائل وتهذيب النفس وحفظ صحتها وكيفية علاجها .

سابعاً : ومن خصائص مذهبه ومنهجه أيضاً أنه اعتمد على الفكرة الغائية وصولاً إلى تحقيق الغاية التي خلق لها الإنسان وكماله سعادته ومبنى هذا عنده (فكرة الغائية) في الموجودات ، فلكل موجود كمال يخصه ، والإنسان من بين الموجودات خص بأشرف الأشياء التي لا يشاركه فيها غيره .

ثامناً : وتعد فكرة الوسطية من السمات العامة التي امتاز بها مذهب ومنهج مسكويه في فلسفته التربوية والأخلاقية ، والوسط عنده ميزان الفضيلة وبه تتحقق ، وكلما ابتعد الإنسان عن الوسط الأخلاقي كلما كانت الرذيلة أشد قبحاً وأعظم جرماً .

تاسعاً : كما اهتم في مذهبه ومنهجه بالمقياس الأخلاقي وصولاً إلى الكمال الإنساني ، بمقدار ما يتحقق للإنسان من الكمال الذي هو غايته بقدر ما تحقق إنسانيته وتعظم سعادته .

عاشراً : كما أن مسكويه فيلسوف عقلي يمنح العقل سلطة مطلقة في التعرف على الخير والشر والحكم عليهما إلا أنه استشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ومزج بين الفلسفة والدين ومزج شتى نظرياته بما تأثر به من فلسفات وصبغه بصبغته الخاصة فهو ينتخب من الآراء ما يتسق مع فكره

ويتساوق مع مذهبه ، ولهذا يقول ديبور : (خلف مسكويه مذهباً فلسفياً في الأخلاق لا يزال له شأن في الشرق كله إلى يومنا هذا) (1) .

ومن ثم يعد مذهبه وطابعه التربوي والأخلاقي مثالاً يحتذى به رواد الفكر في ميادين العلوم الإنسانية على اختلافها ولا سيما في الميدان الفلسفي والتربوي والأخلاقي والنفسي .

(١) (تاريخ الفلسفة في الإسلام) ص٢٣٩ .